

الإعجاز البياني والأغوي  
في القرآن الكريم

[الجزء الأول]

أ.د. عمر يوسف حمزة

الإعجاز البياني واللُّغوي في القرآن  
(H) الكريم

أ.د. عمر يوسف حمزة (HH)

مل:

الحمد لله رب العالمين، الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين الذي أنزل الله تعالى القرآن على قلبه بلسان عربي مبين، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين. وبعد، فإن قضية الإعجاز القرآني قد استحوت منذ وقت مبكر. على قدر كبير من اهتمام العلماء وعنايتهم، وكانت هي الدافع القوي وراء ما بذلوه من جهود مباركة، يرمون من ورائها إلى تحقيق هدف ديني أصيل، جدير بأن يبذل في سبيله كل جهد، وتستنفد كل طاقة. ذلك أن التسليم بأن القرآن الكريم معجز للبشر، يؤدي بدوره إلى التسليم بأنه من عند الله تعالى، وهذا بدوره يؤدي إلى التسليم بأن كل ما

(H) تنبيه: هذا البحث له بقية تتبع في العدد القادم بإذن الله تعالى.

(HH) عميد كلية أصول الدين بجامعة أم درمان الإسلامية (السودان).

تضمنه حق خالص، لا سبيل للباطل إليه، وأنه الصراط المستقيم، وحبل الله المتين، وأنَّ العصمة والنجاة في الاحتماء بحصنه.

لقد بعث الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بالرسالة الخاتمة، فكان ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، ورسالته خاتمة الرسالات جميعاً، فأُنزل الله تعالى عليه القرآن بلسان عربي مبين في لُمة أمية لها باعها الطويل والقُدُ حمالُ على في البيان والفصاحة وروعة الأسلوب، حتى كانت لهم الأسواق والمنابر والمواسم يعرضون فيها أنفُس البضائع، وأدق وأجود وأبرع صناعتهم البيانية، إنها بضاعة الكلام من الشعر والنثر والخطابة، وكان النقد والمساجلة والمناظرة، حتى يختاروا من هذه الصناعة البيانية أروعها وأحسنها في جو من التنافس الشديد، ليتفاخروا بما قدموه، ولتنتقله العرب بعد ذلك تذوقاً للأُغمة التي تهذبت كلماتها وأساليبها واختيرت ألفاظها أحسن اختيار.

فنزل القرآن على النبي محمد ﷺ، وهو معجزته الكبرى، ودليله على النبوة وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وقد وقف أئمة اللُغة من العرب عاجزين أمام القرآن أن يحاكوه أو يماثلوه في أزهى العصور للأمة العربية بياناً وفصاحة وبلاغة. فكان التحدي بألفاظ القرآن وكلماته في فصاحته وبلاغته وبيان أسلوبه، لذا قبل الدخول في لب موضوعنا وهو: الإعجاز البياني واللُّغوي في القرآن الكريم يحسن بنا أن نشير إلى

الموضوعات التي سوف نؤقتها بالدراسة من خلال البحث إن شاء الله تعالى، وهي على الترتيب التالي:

- [1] معجزات الأنبياء.
  - [2] تعريف المعجزة، الإعجاز.
  - [3] تعريف البيان، الفصاحة، البلاغة.
  - [4] معجزة القرآن.
  - [5] التحدي بالقرآن.
  - [6] حالة العرب الفكرية.
  - [7] وجوه الإعجاز.
  - [8] كتب الإعجاز.
  - [9] نماذج من القرآن الكريم دالة على إعجازه البياني.
  - [10] خاتمة تشمل على أهم النتائج التي توصل إليها البحث، كما لبيُّتُ الدراسة بفهرس المراجع، ثم نأتي بعد الإجمال إلى التفصيل.
- والله أسأل أن يوفقني لإخراج هذا البحث على الصورة المقبولة إنه سميع مجيب.

[1] معجزات الأنبياء:

اقتضت حكمة الله تعالى أن يؤيِّد رسله بالمعجزات لتكون تصديقاً لهم فيما يبلغون من رسالاته، إذا ما داخل الشك قلوب أقوامهم، وأنكروا عليهم

دعواهم، كما قالت ثمود لصالح: ﴿مَلَأْنَا بَشَارًا مِّثْلَ مَا مَلَأْنَا قَارًا بِرَأْيَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لَقَلَّ شَرُّبٌ وَلَكُمْ شَرُّبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ {<sup>(1)</sup>}.  
وكما قال موسى ﴿لَفِي طُوفٍ عِزٌّ وَإِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ قَبْلُ عَلَىٰ أَنزَلْنَا عَلَىٰ آلِهَةٍ مِّن قَبْلِكَ فَكُنَّ عَلِيمِينَ رَبِّكُمْ فَأَرْسَلْنَا مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ لَيْتَ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَأَتَتْ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هُوَ خُزْبٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضُ الْمُنِيرِينَ﴾ {<sup>(2)</sup>}.  
وكما قال عيسى ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي قَدْ جَاءْتُكُمْ بِرَأْيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ذِي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهَا فَيَكُونُ طَيْرًا نَّازِلًا اللَّهُ وَأُورِي الْأَكْثَرِيَّةَ وَالْأَمْبُوسَىٰ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ وَتَبَّكُمْ يَمَانًا تَأْكُلُونَ وَمَا يَدَّبُّوكمُ إِنِّي فِي ذَلِكَ لآيَةٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ {<sup>(3)</sup>}.  
وكما قالت قريش لمحمد ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ {<sup>(4)</sup>}.  
وكانهم أرادوها آيات حسية على غرار آيات صالح، وموسى، وعيسى عليهم السلام فقال الله ﴿لِيُحْيِيَ الْبَشَرَةَ﴾: الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ بَرِينٌ أَوْ لَمْ يَكُفُّهُمْ أَتَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِيُعَلِّمَهُمُ {<sup>(5)</sup>}.  

---

(1) سورة الشعراء، الآيتان (154-155).  
(2) سورة الأعراف، الآيات (104-108).  
(3) سورة آل عمران، الآية (49).  
(4) سورة الأنبياء، الآية (5).  
(5) سورة العنكبوت، الآيتان (50-51).

فلفت الله تعالى أنظارهم إلى أن القرآن آية محمد ع ومعجزته، وهو قائم مقام معجزات غيره من الأنبياء.  
[2] تعريف المعجزة:

عندنا فعلان: أحدهما: ثلاثي، والآخر رباعي.

الثلاثي: عجز، يعجز فهو عاجز، ومصدر الفعل هو: العجز.

أما الرباعي: فهو أعجز، يعجز فهو معجز ومصدر الفعل هو الإعجاز.

المعجزة إنَّ: هو اسم الفاعل المؤنث من فعل ذلك الفعل<sup>(1)</sup>.

والمعجزة في الاصطلاح: "هي الأمر الخارق للعادة، السالم من

المعارضة يظهره الله تعالى على يد النبي، تصديقاً له في دعوى النبوة"<sup>(2)</sup>.

ويشترط في المعجزة:

[1] أن تكون فعلاً من الأفعال المخالفة لما تعود عليه الناس وألفوه.

[2] أن يظهره الله تعالى على يد من يدعي النبوة.

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن، 48/1. وانظر: مجلة المنهل، عدد خاص، القرآن الكريم الهدى والإعجاز، عدد 491، عام 1412 هـ. 1991م، بحث الإعجاز البياني في القرآن الكريم، ص 123.

(2) شرح الجلال على العقائد العضدية، 276/2.

[3] أن يكون الغرض من ظهور هذا الفعل الخارق هو تحدي المنكرين، سواء صرح النبي صاحب المعجزة بالتحدي أو كان التحدي مفهوماً من قرائن الأحوال.

[4] أن تجيء المعجزة موافقة ومصدقة لدعوى النبوة، فإذا حدثت المعجزة وكذبت النبي في دعواه فلا يكون النبي صادقاً، كما لو نطق الجماد مثلاً بتكذيب صاحب المعجزة.

[5] أن يعجز المنكرون عن الإتيان بمعجزة مماثلة لمعجزة النبي، أي يعجزون عن معارضته<sup>(1)</sup>.  
تعريف الإعجاز:

**الإعجاز لغة:** مصدر، وفعله رباعي هو أعجز، تقول: أعجز يعجز إعجازاً واسم الفاعل معجز<sup>(2)</sup>.

**والإعجاز في الاصطلاح:** له عدة تعريفات، منها تعريف الإمام الجرجاني<sup>(3)</sup> في كتابه القيم "التعريفات" أن "يؤدي المعنى بطريق، هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق"<sup>(1)</sup>.

(1) بحوث في الثقافة الإسلامية، تأليف عدد من أساتذة جامعة قطر، ص 275.

(2) انظر: المصباح المنير، ص 149.

(3) هو: علي بن محمد بن علي، المعروف بالشريف الجرجاني، فيلسوف من كبار العلماء بالعربية، ولفي تاكوا قرب استرياد، ودرس في شيراز وأقام بها إلى أن توفي، له نحو خمسين مصنفاً. انظر ترجمته في: الفوائد البهية، 125، ومفتاح السعادة، 167/1، وبروكلمن

وقد عرفه مصطفى صلق الرافعي بقوله: «وإنما الإعجاز شئان: [1] ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة، ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته.

[2] ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه. فكأنَّ العالم كله في العجز إنسان واحد، ليس له غير مدنه المحدودة بالغة ما بلغت»<sup>(2)</sup>.

ومن التعريفات المتعلقة بهذا الباب:

[3] تعريف البيان:

البيان: عبارة عن إظهار المعنى بعبارة مبيّنة عن حقيقته من غير توسع في الكلام فإنَّ تأنقت في إسهاب فهي البلاغة.

وأما الفصاحة: فعبارة عن الظهور من قولهم: "أفصح الصبح"، إذا ظهر. واللفظ الفصيح هو الظاهر، والغالب أنه يستعمل باعتبار اللفظ الكثير الاستعمال في معناه وإنَّ خالف القياس<sup>(3)</sup>.

[4] معجزة القرآن:

في دائرة المعارف الإسلامية، 333/6، والضوء اللامع، 328/5، ومعجم المطبوعات، 678،

وآداب اللُّغة، 235/3، والأعلام للزركلي، 190-159/5.

(1) د. صلاح عبد الفتاح الخالدي: البيان في إعجاز القرآن، ص 23-31.

(2) الرافعي: إعجاز القرآن، ص 139.

(3) كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن.



ولما كان التفوق عنصراً مشتركاً بين المعجزات الحسية والعقلية على حد سواء، كان القرآن . وهو معجزة نبينا محمد ع . متفوقاً عما يشاكله من كلام البشر، غير أن القوم أنكروا هذا التفوق، وقالوا حين تليت عليهم **الْأَوَّلِينَ بِسْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَوْ نَشَاءُ لَفُذِّلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا كَلِمَاتُ يَوْمٍ الْأَوَّلِينَ** {<sup>(1)</sup> **وَجَعَلُوا لِلتَّحْدِيهِ مِثْلَهُ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ** } {<sup>(2)</sup> .  
[5] التحدي بالقرآن:

وحار القوم في إجابة هذا التحدي، كيف يأتون بكلام مثل هذا الكلام كله؟ ربما قد حاولوا، ولكنهم عجزوا، وقالوا: **هَذَا إِلَّا إِنْ كُنَّا نَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ** {<sup>(3)</sup>، فتجاوز لهم عن بعض ما طولبوا به، ولم يشأ أن يفلتوا بما أعذروا أنفسهم به، فلئن كان حديثاً مفترى أعين عليه فأثروا به عشر سنين سؤر مِّثْلِهِ مُفْتَرَعِيَّاتٍ مِّنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {<sup>(4)</sup> وما أجداهم أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا في أن يأتوا بالعشر المفتريات، فأرخصي لهم إمعاناً في التحدي الساخر بقدرتهم، فتجاوز عن العشر إلى واحدة مع العون أيضاً **فَقَالُوا يَا نَسْرَةَ**

(1) سورة الأنفال، الآية (31).

(2) سورة الطور، الآية (34).

(3) سورة الفرقان، الآية (4).

(4) سورة هود، الآية (13).

تُذَلِّهِ وَآدُعُوهُمْ مِّنْ أَسْطَاطِعِنَا مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ<sup>(1)</sup>، ولنن  
تقاصرت قدرتكم أن تأتوا بسورة مماثلة لسورة على التحديداً ﴿قُوا بِسُورَةِ  
مِّنْ مِّثْلِهِ وَآدُعُوهُمْ شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ كِلْتَا صَادِقِينَ<sup>(2)</sup>، وربما كانت  
مماثلته على التقريب أيسر عليكم من مماثلته على التحديد.. وهذا ما  
أشارت إليه آية البقرة باستخدام لفظه في مَثَلِهِ {.

[6] حالة العرب الفكرية:

لن نعجل بالجلوب، قبل أن نلقي نظرة على حالة العرب الفكرية  
والبيانية قبيل عصر المبعث، لنرى مبلغ رُقِيَّهم الفكري والأدبي، ممثلاً في  
أسواقهم الأدبية، يعرضون فيها أنفس بضاعتهم من الكلام، وأغلب  
صناعتهم من الشعر والبيان، يتبارون في عرضها ونقدها واختيار أحسنها،  
والمفاخرة بأجودهلهلك ذلك لم يكن غريباً أن نرى القرآن . وقد صادف هذا  
المستوى الفكري لدى هؤلاء العرب أن يناقش ويجادل عن نفسه، وأن  
يشدد في جداله ودفاعه ويعلو صوته حتى يصفح وجه السماء، فما ذاك  
إلا أنه وجد أمامه خصوماً ألداء وأعداء أشداء، أوتوا حظاً من نضج  
الفكر، وبلاغة القول، وعزة النفس كذلك لم يشأ الله أن تكون آيته إليهم إلا  
القرآن، آية عقلية تناسب نضجهم الفكري، ورتبتهم في سلم الرُقِيَّ البشري،

(1) سورة يونس، الآية (38).

(2) سورة البقرة، الآية (23).

وكلما ارتكسوا في حماة اليأس من معارضته، ونكسوا على رؤوسهم في طلب معجزة حسية، أبى الله ذلك وكان قادراً على أن ينزل عليهم آية فتظل أعناقهم لها خاضعين . لأنهم تجاوزوا دور الطفولة البشرية، وتخطوا مرحلة البلادة الفكرية التي اقتضت أن تكون معجزة البشرية في تلك المرحلة حسية<sup>(1)</sup>.

نحن إذأمام مجتمع حي قادر على التفكير، ترى ما الذي منعه أن يرد على هذا التحدي؟  
[7] وجوه الإعجاز:

ملذي أعجزه أن يبذل جهده في المعارضة؟

وهنا يأتي الجواب: إنه العجز عن التشبع بالمعاني الجديدة التي كان يطرقها القرآن، وهذا بعض المعجزة، إنه العجز عن الوقوف على أسرار البلاغة القرآنية، وطريقة تناول الآيات للمعاني، وهذا باقي المعجزة. وهكذا أنبأنا التاريخ بهذا العجز في عصر القرآن، ولكن لم تُطو صفحة التحدي في العصر الذي بعده وأهله بعد على سلائقهم العربية، وفيهم من يود أن يتأتى على هذا الدين من أساسه، وما أيسره عليه لو دخل إليه من باب القرآن بقبول التحدي، ولكن التاريخ لم يسجل لأحد فيه

(1) انظر: د. إسماعيل أحمد الطحان: دراسات حول القرآن الكريم، ص 92.

قدرة على ذلك، بل حـِـل بينم وبين ما يشتهون كما فعلَ بأشياهم من قبل.

ومضت القرون، وورث اللُّغَة عن أهلها الوارثون، وكلما تطاول الزمان بين عصر المبعث والعصور التالية له، كان أهلها أشدَّ عجزاً، وأقلَّ طمعاً في هذا المطلب العزيز، لانحراف ألسنتهم وفساد سلاقتهم، وكانت شهادة على إعجاز القرآن إلى أن تطوى صفحة هذا الوجود، ويرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

ونحن وإن كنا نذهب مذهب القائلين بأنَّ عجز القوم راجع إلى نظم القرآن وبلاغته، وشرف معناه ودقته فما ذاك إلاَّ لأنه لم يصح وجه آخر لإعجاز القرآن سواه عند التحدي أول عهد العرب به، وأنَّ ما أضيف إلى إعجازه البلاغي من وجوه أخرى كالإعجاز الغيبي، والإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي، فإنما كان ذلك عندما اكتمل عقد القرآن، ونظر الباحثون إليه جملة.

ونحن لا ننكر هذه الوجوه أن تكون من آيات إعجازه؛ إنما نريد أن نوكد:

أولاً: أنَّ التحدي بالقرآن كان في حدود ما نزل من سوره في بداية الدعوة.

وثانياً: أنَّ التحدي كان في أدنى مراتبه بأقصر سورة منه.

**وثالثاً: أنَّ التحدي كان بوجه مما برع القوم فيه شأن المعجزات.**  
فما وجه الإعجاز إذاً إن لم يكن الإعجاز البلاغي، فهو عنصر قائم  
في أقصر سورة من القرآن، وهو مناط براعة القوم، وهو أسبق من غيره  
تمثلاً فيما نزل.

وقد تضافرت الروايات التي سبقت من شهادات قريش حول القرآن  
على تأكيد هذا الوجه، فهو منبع السحر الذي وصفوا القرآن به، ومهوى  
أفئدتهم في الاستماع إليه وسبب الإيمان لمن اهتدى به<sup>(1)</sup>.

**ويمكن ملاحظة ذلك في الآتي:**

[1] تسجيل انبهارهم بأسلوب القرآن إدانة لكفرهم وتنديداً بمغالاتهم في  
الكفر مع اعترافهم بهذا الانبهار. هذا ما حكته الآيات من سورة المدثر  
التي تحدثت عن قصة الوليد بن المغيرة حين سمع القرآن من النبي ﷺ  
وانبهر به.

(1) قال سيد قطب . رحمه الله تعالى .: "وإذا تجاوزنا عن النفر القليل الذين كانت شخصية محمد ﷺ  
وحدها هي داعيتهم إلى الإيمان في أول الأمر، كزوجه خديجة، وصديقه أبي بكر، وابن عمه  
علي، ومولاه زيد، وأمثالهم، فإثماً نجد القرآن كان العامل الحاسم، أو أحد العوامل الحاسمة في  
إيمان من آمنوا أوائل الدعوة، يوم لم يكن لمحمد ﷺ ولا طَول، ويوم لم يكن للإسلام قوة  
ولا منعة، وقصة إيمان عمر بن الخطاب، وتولي الوليد بن المغيرة نموذجان من قصص كثيرة  
للإيمان والتولي، وكلتاهما تكشف عن هذا السحر القرآني الذي أخذ العرب منذ اللحظة  
الأولى، وتبينان في اتجاهين مختلفين عن مدى هذا السحر القرآني الذي يستوي في الإقرار به  
المؤمنون والكافرون". انظر: التصوير الفني في القرآن، ص 11.

قال السيوطي في "الإتقان"<sup>(1)</sup>: "أخرج الحاكم عن ابن عباس أنه قال: جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكانه رَقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه لئلا تأتي محمداً لتعرض لما قاله، قال: قد علمت قريش أنني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا رِجْه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوقاً إن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلامغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلو عليه، وإنه ليعظم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكَّر قال: هذا سحر يؤثر يَأْثُرُه عن غيره". وقد قص الله تعالى علينا خبره في سورة المدثر<sup>(2)</sup>.

[2] تسجيل تخبطهم في تفسير سر بلاغة القرآن ومحاولتهم المستمرة للنيل منه، فمرة يقولون: إنه قول شاعر، ومرة يقولون: إنه أساطير الأولين، ومرة يزعمون أن رجلاً أعجمياً يوحى به إلى محمد، ومرة يشبهونه بما يقوله شعراؤهم في المناسبات ويطلبون من محمد أن يأتي بالقرآن كله جملة

(1) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 326/2. وانظر: تفسير الطبري، 98/29، وتفسير ابن كثير، 267/8.

(2) سورة المدثر، الآيات (11-26).

واحدة، ومرة يطلبون منه أن يغيِّه ويبدلَّه. والقرآن يتعقب هذه المحاولات  
اليائسة ويذكرها:

وَقَالُوا أَسْرَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلِيهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا { (1).

وقالوا: إنما يعلمه بشر { (2).

وقالوا: لو أنزلنا آياتنا من السماء لفرقتنا { (3).

لو أنزلنا آياتنا من السماء لفرقتنا { (4).

أو قلوا: لو أنزلنا آياتنا من السماء لفرقتنا { (5).

[3] وسجّل القرآن هذه المحاولات كلها للطعن في نبوة محمد ع وفي

كون القرآن وحياً، وأشار إلى هذا بقوله تعالى: يَا لَيْتَنُوكَ بِمَثَلِ إِلَّا

جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا { (6).

[4] فلما باءت محولاتهم بالفشل المتتابع والإخفاق المتتالي، ادَّعوا

أنهم قادرون على تأليف مثله؛ فأوقعوا أنفسهم في مأزق التحدي.

(1) سورة الفرقان، الآية (5).

(2) سورة النحل، الآية (103).

(3) سورة الأنبياء، الآية (5).

(4) سورة الفرقان، الآية (32).

(5) سورة يونس، الآية (15).

(6) سورة الفرقان، الآية (33).

قال تعالى: ﴿لِنُنزِلَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ فَقَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَطْبِيرُ الْأُولِينَ﴾ (1).

[5] ومن هنا بدأت أزمته الحقيقية، فقد نزل الوحي صريحاً في تحديهم بكل وضوح وقوة وتأکید، وقد ورد التحدي في الآيات التي تقدم ذكرها (2).

[6] وقد اختلف العلماء في مسألة "القدر المعجز" من القرآن، وهذا الاختلاف هو اللبنة الأولى في صرح البحوث الإعجازية في تطورها التاريخي، والتي امتدت إلى أن أصبحت أساساً لما سُميَ فيما بعد بـ "الإعجاز البياني".

أيّما كان الأمر، فقد بدأت بحوث اللُّغويين والمتكلمين في قضية الإعجاز تتبلور بشكل محدد قرب نهاية القرن الثاني الهجري بعد فتنة خلق القرآن التي أثّرت في عهد المأمون بصورة واضحة بتأثير من أحد النصارى وهو: عبد المسيح بن إسحاق الكندي، الذي رفض الدخول في الإسلام حين دعاه بعض رجال المأمون، وانتقد الإسلام وأثار قضية أن

(1) سورة الأنفال، الآية (31).

(2) انظر: ص (18) من البحث، والآيات التي ورد التحدي بها هي الآية رقم (13) من سورة

هود، والآية (38) من سورة يونس، والآية (23) من سورة البقرة.



القرآن مخلوق. وما خلفته هذه الفتنة من مأسٍ معروفة لا داعي هنا لإعادة طرحها أو الإشارة إليها.

غير أن هذه الفتنة امتدت فيما تلا ذلك من سنوات، وتمخضت عن عدة اتجاهات فكرية تمثلت في تبني المعتزلة ممثلين في الظَّام (ت 200هـ) لفكرة "الصرفة"، ومعناها: أن إعجاز القرآن كان بصرف الله تعالى للعرب أن يأتيوا بمثله، وبهذا القول قال كثير من المعتزلة بعد ذلك، بل وقد قال ببعض المفسرين والعلماء من غير المعتزلة، إلا أن الرد على هذه الفكرة ميسور، لأن الإعجاز لو كان بالصرفة فمعناه أن القرآن بذاته غير معجز والإعجاز قائم على قدرة الله تعالى. وهذا ما لا تدل عليه آيات التحدي.

قال العلام ابن عاشور<sup>(1)</sup>: "فعجز جميع المتحدين عن الإتيان بمثل القرآن أمر متواتر بتواتر هذه الآيات بينهم وسكوتهم عن المعارضة مع توافر دواعيهم عليها".

وقد اختلف العلماء في تعليل عجزهم عن ذلك فذهبت طائفة قليلة إلى تعليله بأن الله تعالى صرفهم عن معارضة القرآن فسلبهم المقدرة أو سلبهم الداعي، لثَمَّ الدُجَّةُ عليهم، بمرأى ومسمع من جميع العرب، ويعرف هذا القول بالصرفة كما في "الموافق" للعضد و"المقاصد" للفتناني (ولعلها بفتح

(1) انظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، 103/1.

الصاد وسكون الراء، وهي مرة من الصرف، وصيغ بصيغة المرة للإشارة إلى أنها صرف خاص فصارت كالعَلَم بالغلبة ولم ينسبوا هذا القول إلا إلى الأشعري فيما حكاه أبو الفضل عياض<sup>(1)</sup> في "الشفاء" وإلى اللطام والشريف المرتضى، وأبي إسحاق الإسفرائني فيما حكاه عنهم عضد الدين في "المواقف"، وهو قول ابن حزم صرح به في كتاب "الصدل"<sup>(2)</sup>، وقد عزاه صاحب "المقاصد" في شرحه إلى كثير من المعتزلة.

وأما الذي عليه جمهرة أهل العلم والتحقيق، واقتصر عليه إمام الحرمين، وعليه الجاحظ وأهل العربية كما في "المواقف"؛ فالتعليل لعجز المتحدين به بأنه بلوغ القرآن في درجات البلاغة والفصاحة مبلغاً تعجز قدرة بلغاء العرب عن الإتيان بمثله.  
[8] كتب الإعجاز:

(1) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي السبتي أبو الفضل، عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، له عدة تصانيف منها: "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ع". انظر ترجمته في: أزهار الرياض = = في أخبار القاضي عياض، وفيات الأعيان، 392/1، وقضاة الأندلس، 101، وقلائد العقبات، 222، والفهرس التمهيدي، 368، وبغية المتلمس، 425.

(2) ابن الفرجندل في الملل والأهواء والنحل، 7/3، و184/2.

على الرغم من كون الجاحظ<sup>(1)</sup> معتزلياً وتلميذاً لإبراهيم الطَّام؛ فقد آمن بفكرة الإعجاز، ووضع كتاباً حول الإعجاز الأسلوبي للقرآن أسماه "نظم القرآن"، لم يصل إلينا، ولكن الجاحظ على طريقته في الإشارة إلى بعض كتبه في بعضها الآخر، أورد بعض الفقرات من هذا الكتاب في كتابيه: "الحيوان" و"البيان والتبيين" الموجودين حالياً، ويتلخص رأي الجاحظ في تبنيه للقول بالصرفة إلى جانب إيمانه بأنَّ العرب عجزوا عجزاً حقيقياً. مع محاولاتهم. عن الإتيان بمثل القرآن، بسبب طريقة نظم القرآن أي أسلوبه، ويعتبر كتاب الجاحظ المفقود هذا أول كتاب في إعجاز القرآن كما يقول الباقلاني (ت 306هـ)، أشار إليه الرافعي وقال: "إنه سبق به عبد القاهر الجرجاني".

وفي القرن الرابع نجد رسالة للرماني في إعجاز القرآن، أشار الرافعي في كتابه "إعجاز القرآن" إلى أنها تعتبر المرحلة الثالثة. بعد الجاحظ والواسطي من مراحل القول بأنَّ الإعجاز أسلوبي بياني. وقد أشار ابن

(1) هو: عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء الليثى، أبو عثمان الشهير بالجاحظ، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، مولده ووفاته في البصرة، له تصانيف كثيرة منها: "الحيوان"، و"البيان والتبيين"، و"سحر البيان" وغيرها. انظر ترجمته في: إرشاد الأريب، 80/6، والوفيات، 888/1 وأمرء البيان، 311، ولسان الميزان، 355/4، وتاريخ بغداد 212/12.

سنان الخفاجي في "سر الفصاحة" والسيوطي في "الإِتقان"<sup>(1)</sup> إلى رسالة الرماني هذه. وهي تتميز بأنها نقلت مباحث الإعجاز خطوة إلى الأمام بتلخيص الرماني لكل ما قيل قبله من آراء في رسالته هذه.

وممن ساروا على هذا الطريق أيضاً الخطابي (ت 388هـ)، في كتاب له عن إعجاز القرآن من جهة بلاغته، وقد اجتهد في تفصيل وجوه الإعجاز من جهة البلاغة، وخرج به عن دائرة النظم إلى دوائر أخرى من المعاني كالإخبار بما يحدث في المستقبل، وبهذا يكون البحث في الإعجاز قد بدأ ينتقل إلى طور جديد.

وابتداء من القرن الخامس الهجري، ومع اتساع مجالات علم الكلام<sup>(2)</sup>، وتفتّح بعض مظاهر الزندقة والإلحاد<sup>(3)</sup>؛ بدأت البحوث في الإعجاز القرآني تتخذ مسارات أكثر تطوراً، وساعد على هذا التطور

(1) انظر: الإِتقان للسيوطي، 326/2 وما بعدها.

(2) علم الكلام هو: علم التوحيد، والكلام في أصل اللُّغة: الأصوات المفيدة، وعند المتكلمين: "المعنى القائم بالنفس الذي يعبر عنه بألفاظ يقال: في نفس الكلام"، وفي اصطلاح الثُّحاة: "الجملة المركبة المفيدة، نحو: جاء الشتاء، أو شبهها مما يكتفي بنفسه، نحو يا علي". انظر: المصباح المنير، 206، والمعجم الوسيط، 796/2، وشرح الأصول الخمسة لعبد الجبار، 6.

(3) الزنديق: المشهور على ألسنة الناس أنّ الزنديق هو الذي لا يتمسك بشريعة، ويقول بدوام الدهر، والعرب تُعبّر عن هذا بقولهم: ملحد أي طاعن في الأديان، وفي "التهذيب": وزندقة الزنديق أنه لا يؤمن بالآخرة ولا بوجدانية الخالق. انظر: المصباح المنير، 98.

الازدهار المشهود الذي اتسمت به البحوث اللُّغوية والفنون الأدبية، ويعدُّ كتاب الباقلاني من أفضل نتاج هذا القرن في مجال الإعجاز، إلى جانب إنجازات عبد القاهر الجرجاني الذي وضع نظرية النظم وضعاً متكاملًا، وإليها يرجع الفضل في تطور علوم البلاغة بعد ذلك، بل إننا لا نغالي إذا قلنا إن ما جاءت به بعض المدارس اللُّغوية المعاصرة التي اهتمت بالأسلوب والتحليل البنائي للتراكيب اللُّغوية لم تضيف كثيرًا إلى ما نادى به عبد القاهر . كما سيتضح ذلك بعد قليل ..

أما كتاب الباقلاني فقد تلا ذلك من عصور، هو المنوال الذي نسج عليه المؤلفون في الإعجاز بعد عصر الباقلاني، وفيه ناقش مسألة في غاية الأهمية، وهي أن القرآن لم يجيء معجزاً للكفار في عصر النبي ﷺ فقط؛ بل إن إعجازه يشمل كل العصور التالية، والدليل على ذلك في رأيه . أن أسلوب القرآن سيظل أرقى من كل الأساليب مهما تطورت .  
كَمفَرِّق الباقلاني بين إعجاز القرآن وإعجاز غيره من الكتب السماوية، فأوضح أن إعجاز تلك الكتب مقصور على الإخبار بالغيب فقط، والقرآن إعجازه متعدد الجوانب<sup>(1)</sup> .

(1) انظر: بحث الإعجاز القرآني نظرة تاريخية، د. مصطفى رجب، مجلة المنهل، العدد 491،

أكتوبر 91، ص 38.

أما عبد القاهر فقد بنى نظريته في النظم على أساس لغوي نحوي بحت، فهو في كتابه: "دلائل الإعجاز" يوضح جوانب نظريته تلك توضيحاً كافياً ويرد على مخالفيها. وملخص ما ذهب إليه أن البلاغة التقليدية تقوم على حسن اختيار الألفاظ، فيتقوى المعنى بما يبذله المنشئ للأدب من جهد في التقديم والتأخير والاستعارة.

أما القرآن فإنه يقوم بالأساس على فكرة أداء المعنى المراد بصورة جمالية مؤثرة في النفس من خلال العلاقات اللغوية (صوتياً بين الحروف، ونحوياً بين الكلمات، وصرفياً باختيار بناء صرفي محدد) وهذه العلاقات الثلاث تسهم في وضعية الدلالة وتأثيرها.

وهكذا بدأت بحوث الإعجاز تتميز عن بحوث البلاغة وعلم الكلام، وفتح عبد القاهر والباقلاني باب تلك البحوث لمن جاء بعدهما. ففي القرن التالي لهما، وهو القرن السادس، نجد الاهتمام بالبحث في الإعجاز يتسع ليشمل متكلمين كأبي حامد الغزالي (شافعي المذهب)، والقاضي عياض (مالكي المذهب)، ومفسرين كالإمام الزمخشري<sup>(1)</sup> وابن عطية<sup>(2)</sup>.

(1) انظر: الكشاف للزمخشري، 295/4.

(2) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، تفسير سورة البقرة.

وفي القرن السابع نجد الإمام فخر الدين الرازي، وهو مفسر مشهور ويأخذ تفسيره المسمى "مفاتيح الغيب" طابعاً خاصاً يهتم بالرد على فرق كثيرة من المتكلمين والزنادقة<sup>(1)</sup>.

ونجد السكاكي البلاغي في كتابه: "مفتاح العلوم" الذي يعدّه كثير من الباحثين خاتمة كتب البلاغة القديمة في صورتها الإبداعية، ويعدّون مؤلفات البلاغة بعد السكاكي مجرد شروح وحواش وتلخيصات واجترار لما قاله السابقون.

كما نجد اهتماماً بالبحث في الإعجاز في هذا القرن أيضاً عند ابن العربي الأمدي، علي بن أبي علي (ت 631هـ)، وحازم القرطاجني (ت 684هـ)، ثم البيضاوي المفسر<sup>(2)</sup>.

وفي القرن الثامن نجد آراء قيمة للزملكاني (ت 727هـ) في كتابه: "التبيان في إعجاز القرآن"، وابن تيمية (ت 728هـ) في كتابه: "جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن"، والخطيب الذي لخص كتاب: "مفتاح العلوم" للسكاكي، ويحيى بن حمزة العلوي صاحب كتاب: "الطراز" (ت 749هـ)، وابن القيم (ت 751هـ) صاحب كتاب "الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان"، الذي يتناول فيه بإسهاب قضية

(1) تفسير الفخر الرازي، 22/14. وانظر: كشف الظنون، مادة (تفسير)، 431.

(2) تفسير البيضاوي، 204/5.

الإعجاز القرآني وما سبقه من آراء فيها. كما نجد إشارات للإعجاز في تفسير ابن كثير (ت 774هـ)<sup>(1)</sup>.

وتتابعت الكتابات في الإعجاز القرآني بعد ذلك، حيث نجد في القرن التاسع آراء لابن خلدون والفيروزآبادي والمراكشي.

وفي القرن العاشر يظهر السيوطي بكتابه: "الإتقان في علوم القرآن" و"معتزك الأقران في إعجاز القرآن"، وكتابه الثاني جامع ومفيد يقع في ثلاثة مجلدات، وهو في رأي بعض الباحثين أثمن كثيراً من الإتقان وأشمل، ويغفل عنه كثير من الباحثين على الرغم من قيمته العظيمة، وقد رتبّه الإمام السيوطي على خمسة وثلاثين وجهاً من وجوه الإعجاز، ويقدم لكل وجه بمن أدف فيه قبله، وهو يدعى سجلاً للمؤلفين والكُتّاب في هذا الفن<sup>(2)</sup>. كما نجد في هذا القرن أيضاً تفسير أبي السعود<sup>(3)</sup> وبعض الإشارات عند طاش كبرى زاده.

وفي القرن الحادي عشر نجد الشهاب الخفاجي، وفي القرن الثاني عشر نجد الضرير المالكي الإسكندري، الذي تفرّد بين علماء التفسير

(1) تفسير ابن كثير، تحقيق سامي محمد السلامة، 47/1.

(2) انظر: د. إسماعيل أحمد الطحان: دراسات حول القرآن الكريم، ص 97.

(3) إرشاد العقل السليم لأبي السعود، 390/5.



بوضعه تفسيراً منظوماً كاملاً للقرآن الكريم، كما نجد الجمل الذي وضع  
حاشية على تفسير الجلالين.

وفي القرن الثالث عشر يتميَّز الإمام الشوكاني بتفسيره: "فتح  
القدير"<sup>(1)</sup> والألوسي بـ: "روح المعاني"<sup>(2)</sup>. وقد تحدث كل منهما في ثنايا  
تفسيره عن البلاغة القرآنية وجوانبها المختلفة. وخير ما نجده في هذا  
العصر كتاب "البرهان في علوم القرآن" للإمام بدر الدين الزركشي، وفيه  
مبحث جيد في إعجاز القرآن، والكتاب مطبوع حالياً في أربعة مجلدات  
ومتداول.

ومن الكتب الجيدة أيضاً التي تناولت الإعجاز بتفصيل دقيق "مناهل  
العرفان في علوم القرآن" للشيخ/ محمد عبد العظيم الزرقاني حيث عرّف  
إعجاز القرآن بقوله: أصل الإعجاز في اللأغة: إثبات القرآن عجز الخلق  
عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما  
تعلق بالفعل محذوف للعلم به.

والنقدير: إعجاز القرآن خلق الله تعالى عن الإتيان بما تحداهم به.  
ولكن التعجيز المذكور ليس مقصوداً لذاته، بل المقصود لازمه وهو إظهار

(1) انظر: فتح القدير للشوكاني، مؤسسة الريان، بيروت، ط/1، 1418هـ، 69/1. ومحاسن

التأويل للقاسمي، 72/1، وتفسير النسفي، 381/4.

(2) انظر: روح المعاني للألوسي، 256/30.

أنَّ هذا الكتاب حق، وأنَّ الرسول الذي جاء به رسول صدق، وكذلك الشأن في كل معجزات الأنبياء، ليس المقصود بها تعجيز الخلق لذات التعجيز، ولكن لئلا يظنوه وهو دلالتها على أنهم صادقون فيما يبلغون عن الله تعالى، فينتقل الناس من الشعور بعجزهم إزاء المعجزات، إلى شعورهم وإيمانهم بأنها صادرة عن الإله القادر، لحكمة عالية، وهي إرشادهم إلى تصديق من جاء بها ليسعدوا باتباعه في الدنيا والآخرة<sup>(1)</sup>. ولقد تناول في المبحث السابع عشر إعجاز القرآن وما يتعلق به بالتفصيل، فارجع إلى ذلك هناك<sup>(2)</sup>.

ولم يعدم القرن الأخير كُتَّاباً شغلهم إعجاز القرآن فأدَّفوا فيه كالرافعي في كتابه: "آداب العرب" و"إعجاز القرآن"، والدكتور/ محمد عبد الله دراز في كتابه: "النبأ العظيم" في بعض مباحثه، وسيد قطب في كتابه: "التصوير الفني في القرآن"<sup>(3)</sup>.

(1) راجع: مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني، 331/2.

(2) انظر: 434-331/2، وراجع: مناهل العرفان لتقف على تفصيل أكثر، 84-56/1.

(3) انظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص 11، وما بعدها، و د. محمد عبد الله دراز:

النبأ العظيم، ص 80-109.

وما زال في الساحة كثير ممن لا أحصيهم عدداً، وفي ضمير الغيب كثير ممن سيُقيَضُ ونَ لهذا العمل الجليل، ويورثون علم هذا الكتاب العزيز حتى آخر الزمان.

[9] نماذج من القرآن الكريم دالّة على إعجازه البياني:

لنأخذ بعض الأمثلة الدالّة على الإعجاز البياني على سبيل الإيضاح لبعض الجوانب المهمة في براعة أسلوب القرآن وكونه معجزاً.

يقول القاضي عياض: "أولها حسن تأليفه"، من حيث تركيبه بين حروفه، وكلماته، وآياته، وسوره، وقصصه، وحكاياته، وانتظام كلماته، في سلك مبانيتها المتناسبة لمقتضى معانيها المتناسقة.

وهذا هو السر في أنّ القرآن لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية، من حيث ذوات المفردات والجمل وقوانينها العامة، بل جاء كتاباً عربياً جارياً على مألوف العرب من هذه الناحية، فمن حروفهم تألّفت كلماته، ومن كلماتهم تألّفت تراكيبه، وعلى قواعدهم العامة في صياغة هذه المفردات وتكوين التراكيب جاء تأليفه، ولكن المعجز والمدهش أنه مع دخوله على العرب من هذا الباب الذي عهدوه، ومع مجيئه بهذه المفردات والتراكيب التي توافروا على معرفتها، وتنافسوا في حليتها، وبلغوا الشأوا الأعلى فيها، نقول: إنّ القرآن مع ذلك كله وبرغم ذلك كله؛ قد أعجزهم بأسلوبه الفذ، ومذهبه الكلامي المعجز. ولو دخل عليهم من غير هذا

الباب الذي يعرفونه، لأمكن أن يلتبس لهم عذر أو شبه عذر، وأن يسلم لهم طعن أو وشبه **طعنناه** **قُرْ** أنا أعجمياً لقالوا لو لا فصلت آياته **أعجميٌّ عوربيٌّ** <sup>(1)</sup>، ولهذا المعنى وصف الله كتابه بالعروبة في غير آي فقال **جَلَّ** ذكره في سورة يونس **نزلناه** **قُرْ** أنا **عربياً** **كُم** **تَعْقِلُون** <sup>(2)</sup>، وقال في سورة الزخرف **نزلناه** **قُرْ** أنا **عربياً** **كُم** **تَعْقِلُون** <sup>(3)</sup>، وقال في سورة الزمر: **فَوَلَّانَعَرَبِيًّا نَعِي عَوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** <sup>(4)</sup>.

ومن فصاحة القرآن وضوح بيان معانيه، مع اقتصاد مبانيه، مع إيجازه، وذلك بإيفاء واكتفاء وإيماء <sup>(5)</sup>، غير مخل ولا ممل، ومن بلاغته في عجائب التراكيب، وغرائب الأساليب، وبدائع العبارات، وروائع الإشارات، المتجاوزة لعادة العرب من فصاحتهم وبلاغتهم.. حيث إنهم كانوا أرباب هذا الشأن من الفصاحة والبلاغة وفرسان الكلام، وقد خُصوا من البلاغة والحدِّ كَم ومن كمال العقل ما لم يُخص به غيرهم من الأمم سابقة ولا حقة، حتى إنهم تساجلوا في النظم والنثر وتفاخروا وتكاثروا، فما راعهم إلا رسول

(1) سورة فصلت، الآية (44).

(2) سورة يوسف، الآية (2).

(3) سورة الزخرف، الآية (3).

(4) سورة الزمر، الآية (28).

(5) انظر: مناهل العرفان، 2/334.

كريم جاءهم بخلاف هواهم لكنه معه هداهم.. حتى أتاهم بكتاب عزيز { لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَالْأَفْهَامُ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } (1) أحكمت آياته، وفصلت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول نظماً أو نثراً. وهذا الوليد بن المغيرة سمع من النبي ﷺ: *يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَالْأَفْهَامُ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ* قال الوليد قولته المشهورة: *والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر.. ما يقول هذا بشر* (3).

وكل هذا مما جعل القرآن الكريم في فصاحته وبلاغته خارقاً للعادة، يعجز المنكرين واعتراف المفترين، ولنأخذ مثلاً للتأمل في إعجاز بلاغته متأملاً الإيجاز الباهر في الإعجاز الظاهر في قوله تعالى: *وَالَّذِينَ فِي الْأَقْصَاصِ حَيَاةٌ* (4) نجد من بدائع التركيب وروائع الترتيب، مع ما فيه من

(1) سورة فصلت، الآية (42).

(2) سورة النحل، الآية (90). وراجع: تفسير الآية في: زاد المسير للسيوطي، 483/4 وما بعدها، وتفسير ابن كثير، 596/4 وما بعدها، والطبري، 409/14، والحلية، 255/8، والإصابة، 118/1، والاستيعاب، 146/1، ومسنَد أحمد، 36/5.

(3) الإتيان في علوم القرآن، 326/2.

(4) سورة البقرة، الآية (179). يقول ابن قتيبة: يريد أن سافك الدم إذا أُفيد مملوئدع مَن يُهم قتلًا فلم يَقتل خوفاً على نفسه أن يُقتل، فكان في ذلك حياة". انظر: تفسير غريب القرآن، 72. وانظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، 5، والدر المنثور للسيوطي، 17/1.

المطابقة بين معنيين متقابلين، وهما: القصاص والحياة. ومن الغرابة بجعل القتل الذي هو مفوت الحياة ظرفاً لها. ومن البلاغة حيث أتى بلفظ يسير متضمن لمعنى كثيفين الإنسان إذا علم أنه إذا قَتَلَ اقتُصَّ منه دعاه ذلك إلى رده عن قتل صاحبه، فكأنه أحيا نفسه وغيره، فيرتفع بالقصاص كثير من قتل الناس بعضهم بعضاً، فيكون القصاص حياة لهم مع ما في القصاص من زيادة الحياة الطيبة في الآخرة. وفي هذا نجد أنه أولى من كلام موجز عند العرب وهو أن: (القتل أنفى للقتل)، في قلة المباني، وكثرة المعاني، وعدم تكرار اللفظ المنفر، وفي الإيماء إلى أن القصاص . الذي بمعنى المماثلة . سبب للحياة دون مطلق القتل بالمقابلة، إذ ربما يكون سبباً لفتنة فيها قتل فئة وفساد جماعة.

وهناك أمثلة كثيرة ثل على حسن تأليفه وروعة تراكيبه، ففي العصر الذهبي للأغة العربية حيث بلغت الذروة في الصفاء والقوة، وحيث كانت تُخلع ألقاب التشريف والتكريم علانية على الشعراء والخطباء في المسابقات السنوية، ما إن ظهر محكم التنزيل حتى اكتسح الحماس للشعر والنثر، وأنزلت المعلقات السبع من باب الكعبة، واتجهت كل الأسماع إلى هذا الإعجاز الجديد في اللأغة العربية.

فلغة القرآن مادة صوتية، تبعد عن طراوة لغة أهل الحضر، وخشونة لغة أهل البادية، وتجمع . في تناسق حكيم . بين رقة الأولى وجزالة الثانية، وتحقق السحر المنشود، بفضل هذا التوفيق الموسيقي البديع بينهما<sup>(1)</sup>.  
إنها ترتيب في مقاطع الكلمات في نظام أكثر تماسكاً من النثر، وأقل نظاماً من الشعر، يتنوع في خلال الآية الواحدة ليجذب نشاط سامعه، ويتجانس في آخر الآيات سجعاً، لكي لا يختل الجرس العام للوقفات في كل سورة<sup>(2)</sup>.

أما كلماته فمننقاة من بين الكلمات المشهورة، دون أن تهبط إلى الدارج، ومختارة من بين الكلمات السامية، التي لا توصف بالغريب إلا نادراً .

وتمتاز بالإيجاز العجيب في الكلام، إذ تُعَبَّرُ بأقل عدد من الكلمات عن أفكار كبيرة يصعب التعبير عنها في العادة إلا بجمل مطوّلة نسبياً .

**(انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني في العدد القادم بإذن الله)**

(1) راجع: د. محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم، ص 115.

(2) هناك استثناءات من هذه القاعدة، فقد لا ينتظم السجع إلا على مراحل، ويختلف بين

مجموعات الآيات في نفس السورة، انظر مثلاً، سورة الحاقة والسورة التالية.